

حكاية الديمقراطية في العالم

بقلم

د. حامد طاهر

الديمقراطية اختراع يوناني قديم، ومعناها حرفياً حكم الشعب بالشعب. وكانت أثينا تطبق هذا المبدأ بحذافيره، فتعطي لكل مواطن يوماً في العام فرصة للاشتراك في مجلس النواب، الذي كان يضم خمسمائة مقعد، وبذلك يتاح له فرصة إبداء الرأي في ذلك اليوم، والمساهمة في صياغة تشريع جديد، أو تعديل تشريع قديم. وبالطبع لم تكن الأمور تجري على نحو صحيح، فالكثير من هؤلاء النواب كانوا أميين وليسوا على المستوى العقلي المطلوب، والدليل على ذلك أنهم هم الذين قرروا ذات يوم في اجتماع صاحب إعدام فيلسوفهم الشهير سقراط بتهمة إفساد الشباب، مع أنه أول فيلسوف عالمي دعا الناس كلهم إلى التفكير العقلي الصحيح والذي كان يحدث أن جماعة من المتحكمين في هذا المجلس النيابي كانوا يتجولون بين الصفوف، ويستحثون الأعضاء على الموافقة أو عدم الموافقة على الرأي المطلوب أو المرفوض!

وعندما سقطت اليونان تحت قوة روما العسكرية، تبنت هذه الأخيرة الديمقراطية، ولكن بأسلوبها الخاص؛ مخصرتها على النبلاء، وحرمت منها العبيد والفقراء، ولم يكن صوت أحد من نوابها يعلو على صوت الإمبراطور، الذي اعتبره صاحب حق إلهي، لا يخطئ، ولما يجوز أن يعترض على قراراته أحد.

ثم بعد الرومان، دخلت أوروبا في عصورها الوسطى، التي حكم فيها الأباطرة والملوك بصورة استبدادية كاملة، وساعدتهم الكنيسة على ذلك؛ لذلك لم يكن يتصور وجود أي أثر للديمقراطية طوال تلك الفترة؛ وإذا ما ظهر صوت معارض كان يتم إخماد روع صاحبه بالحرق أو الإعدام العلني؛ لأنه لم يكن يعارض النظام السياسي فقط، بل الإلهي كذلك.

ومن خلال هذه الظلمة المضاربة، راح العلم يتقدم ببطء، والأفكار الفلسفية تحرك العقول، حتى هبت الثورات الكبرى في أوروبا، كالفرنسية التي أطاحت بالملكية، وأحلّت محلها الجمهورية، وفي بريطانيا التي حددت سلطات الملك، ووضعت نظاماً برلمانياً محكماً، وقد لمست الشعوب التي أخذت بالديمقراطية مزاياها، وخاصة في أوروبا الغربية بينما ظلت أوروبا الشرقية، وعلى رأسها روسيا، متخلفة نتيجة وجود نظام القياصرة فيها.

وبالطبع تطورت الديمقراطية كثيراً عن شكلها اليوناني القديم ، فقد أصبح الشعب في كل منطقة يختار ممثلاً له ، وهؤلاء الممثلون هم الذين يشكلون البرلمان (والكلمة بالفرنسية تعنى مكان الكلام) ، فإذا اجتمع عدد منهم أكثر من غيره ، تشكلت منهم الحكومة ، وأصبحت الأقلية معارضة ، وعندما تفضل هذه الأغلبية في تحقيق مصالح الناخبين ، يسقطونها في الدورة التالية .. وهكذا تسير الأمور .

أما في العالم العربي ، فما زالت بعض بلاده لم تأخذ بالنظام الديمقراطي أساساً ، والتي تأخذ بها لا تطبقها كما ينبغي . وفى إفريقيا ربما حصل رئيس فى الانتخابات على أصوات أكثر ، ولكن الرئيس المنتهية ولايته يرفض التخلي عن المنصب . لماذا ؟! هكذا بكل بجاحة !

* * *